أزمة الأدب الإنساني في العالم

بقلم خليل هنداوي

هل في عالم الادب ازمة على النحو الذي يستخدمه اهل الاقتصاد والسياسة مثلا في التعبير عن القلق الذي يغمر الاسواق والمحافل السياسية « بالازمة » ؟

اننا نشكو أزمة محلية في ادبنا ، ولكن كيف نشكوها ؟ والمطابع تغدق علينا ، كل يوم ، الوف الكتب المنقولة والموضوعة .

الحق ان الازمة كانت سابقا ازمة قلة القراء ، حين كان يخرج الاديب كتابه ، ويصفه على الرفوف حتى تأكله الارضة والغبار . والآن اصبحت الازمة ازمة كثرة القراء الذين تفتحت فيهم ثائرة النهم ، فهم يأكلون ولا يشبعون.

كانت الازمة ازمة قلة ما تعطيه المطابع ، وتنفقه المكاتب. واليوم اصبحت الازمة ازمة كثرة ما تجود به المطابع والمكاتب .

فالمطابع نفسها اصبحت اسيرة كالآلة التي لا تستطيع ان تهدأ ، اذ لا بد لها ان تعطي ، ولا مفر لها من ان تعطي مهما كانت قيمة هذا الشيء الذي تعطيه ، لا ليسد هذا الشيء المعطى حاجة، ولا ليقوم برسالة.. ولكن خلف ذلك الناشر التاجر الذي أخضع منتوجات الفكر كمنتوجات المادة وراح يبحث عما يثير القارىء من دوافع ،ورغبات صالحة وغير صالحة ، ويضع الكاتب امام الامر الواقع اذا أراد رواجا لكتابته ، اما قيمة هذا الشيء الذي يعطيه وينشره في حساب الفكر الخالص ، والادب الخالص فشيء لا يدخل في الحساب ..

مثل ذلك هذا القصص الذي يترجم، او يوضع، وتغص به مطابعنا ومكاتبنا ، بالرغم مما فيه من حسنات اوسيئات لا يقبل عليه الاديب والناشر لانهما يريدان من ورائه تقديم رسالة ادبية خالصة ، وانما يقبلان عليه لانه بضاعة السوق الرائجة ، ولذلك تعبر هذه الآثار التي كتب بعضها بمداد من الدم والالم الانساني دون ان تترك خلفها الا سطورا من ماء !

على اننا لا نستطيع ان ننكر ان ازمة الادب كامنة ، في الحقيقة ، في روح العصر نفسه ، وليست هذه الازمة بوقف علينا ، لاننا لا نعرف عصرا انطلقت فيه القوى المجهولة ، وتفتحت فيه اسرار الطبيعة البخيلة كهذا العصر الجبار .

فمذ التفت العقل البشري الى « الواقع المادي » في ميداني العلم والفلسفة ، واعرض عن المسائل الروحية والميتافيزيكية التي كان يطرقها عبثا وصل الى نتائج ما كان ليحلم بها .

وهذه النتائج التي ولدها العلم والعقل المادي أصبحت تتحكم في حياتنا ومقدراتنا . وهؤلاء العلماء الذين شدوا « زنبرك » الحياة ، ثم اطلقوه لن يستطيعوا ان يسيطروا بعد اليوم ، على تقييده .

ومن الحق ان يقبل الناس مذهوشين بهذه النتائج العلمية التي اخضعت لهم الحياة ، ويسرت لهم اسبابا كثيرة من الترف ، وباتوا لا يبالون كثيرا بمهمة الادب والقيم الروحية ، والمثل العليا في الحياة . بل باتوا يتساءلون ساخرين : « ما شغل هذه القيم بعد اليوم في هذا العالم المادي ؟ وماذا استطاع ان يبني الادب ؟ وماذا يصنعه الاديب في مصير الانسان ؟ بل لاموه كثيرا على الاغراق في خيالاته ، وروحانياته وبعده عن الواقع .

فرأينا الادب الخالص الذي كان يعنى بالمصير الانساني والنفس الانسانية ينطوي على نفسه ، وينسحب من الحياة منهزما او شبه منهزم . بل رأينا بعض هذا الادب يساير واقع الحياة والناس حتى يصبح لونا من الوان الدعاية لفكرة او عقيدة ، او غرض سياسي . اما ظاهر موضوعه فالانسانية والانسان ، واما باطن موضوعه فمذهب معين ولون خاص من الوان الانسان .

وبذلك ، ضاع أثر التوجيه السامي للادب ، والاديب ، وامسى القراء اشتاتا فيما يقرأون . فالقراء الذين ارهقتهم الحياة يريدون الادب ضربا من ضروب اللهو والتسلية والترفيه . والقراء الذين يعتقدون بمذهب او عقيدة لا يقرأون الا الادب الذي يتصل بعقيدتهم ، اما الادب الذي لا يتصل بها فهو ادب ليس من الحق ان يقرأ ..

وهكذا بات الادب الذي يتصل بالانسانية كلها ، ويخص الناس كلهم لانه يعبر عن عواطفهم وحيرتهم وحقيقتهم مهملا غير جدير بالاعتبار . ولنا في اكثر الادب الذي طغى على العالم قبل الحرب العالمية الثانية ، وهذا الادب الذي يطغى اليوم في اقطار معينة شاهد على انه اصبح ملكا للدعاية ، وبوقا لاغراض

« سيظل الادب في ازمة ما دام يهمل رسالة الانسانية ويكفر بتعاليمها السامية ، فاذا لم يؤد الادب العالمي رسالة انسانية صادقة ويوقظ ضمائر الناس على الحق والخير والحب فسيظل العالم في ازمة ، ويظل الفكر العالمي معه في ازمة لا يكون وقودها الناس والحجارة ، بل تكون ضحيته الاولى هذه الارض التي كتب تاريخها الانسان ثم يمحوه ـ ويا للاسف ـ هذا الانسان »

مقصودة ، واهواء محدودة .

واليوم دخلت أزمة التفتح العلمي الفجائي الذي كشف عن قوة الطبيعة التي انطلقت ، ولم يعد يملك الانسان تقييدها . وبدلا من ان يشيع الثقة والاطمئنان والايمان الانسانية ، فهل أيقظت هذه الازمة ضمير الادب والادباء ؟ الانسانية ، فهل ايقظت هذه الازمة ضمير الادب والادباء؟ لمن يتركون انقاذ العالم بعد ان نفضوا اليد من انقاذه ؟ ومن ذا يحمل على كاهله القيم الخلقية والروحية بعد ان باع الادباء ضمائرهم للشيطان ؟ فكان ان زادوا بذلك أزمة الادب الذي تخلى عن رسالته المعنوية ، وتناسى غايته الانسانية التي تهدف الى المحبة والالفة والسلام بين الشعوب .

عجبا للعلماء كيف يجتمعون فى مصنع واحد على اختلاف جنسياتهم ، ليفتنوا فى الكشف عن اسرار القوة باسم العلم المجرد ، ثم يسكت الناس مخدوعين بهذا العلم المجرد الذي سيهدم العالم والحضارة والفكر الانساني باسم العلم المجرد ! ثم لا يجتمع الادباء ، ورسل الانسانية على اختلاف جنسياتهم ، متردين على حدود القومية الضيقة ، ليجدوا توجيها ضد هذا الانطلاق العلمي الذي يعبث بالارض ، أو توجيها يراد منه ، على الاقل ، بناء الضمير الانساني الذي يمتنع بنفسه عن التهديم .

اولئك يضعون تجاربهم بين ايدي رجال السياسة الذين لا ضمير لهم ، فاذا هم يملكون كل شيء من ادوات التخريب والادباء ليس ببعيد عنهم لو ارادوا ان يملكوا على ضمائر الشعوب كلها لو احسنوا التوجيه .

لقد تغنى الفيلسوف الفرنسي « غيو » في يوم ظهور الآلة الصناعية بمحاسن الالة ، لانها ستزيد الهام الادباء بما تخلق لهم من مشاهد جديدة. وليس جمالها عنده باقل جمالا من الوان قوس قزح .. ولكن هل درى صاحبنا اليوم ان الآلة التي ابدعها الانسان لراحته وسعادته أصبحت مصدر عبودية للانسان والشعوب ؟

لقد كان الادب يقول : انني ملكت العالم فى الحلم والخيال ولكن العلم يقول الآن : أنني املكه فى الحقيقة والواقع ، وشتان ما الاثنان ! واحد يملك ليبني ويزخرف ، وآخر يملك ليهدم ويدمر !

من الحق اننا لا نستطيع توجيه الادب نحو غاية واحدة ، او رسالة معينة ، لان الادب ابن بيئته ، والحاجة التي تتسلط عليه ، واذا كان الادباء الاحرار والموجهون سواء فى هذا التعريف فكيف ينكرون على الادب ان يحس هذه الحاجة الانسانية التي هي ابرز الحاجات واسمى الاغراض فى هذا العصر ؟ واذا كان يحمد للادب ان يعالج مشكلة الفرد فكيف لا يحمد حين يعالج مشكلة الانسان فى اي زمان

صدر كتاب :

هارون الرشيد

دراسة تاريخية اجتماعية سياسية

للدكتور عبد الجبار الجومرد

مجلد ضخم يقع فى جزأين يتناول سيرة هارون الرشيد ، فيزيل مع علق بها من افتراءات وشوائب الصقتها بها الشعوبيات التي كانت تكيد للقومية العربية فى شخصه ، ويبرز حياته جلية واضحة مدعمة بالبراهين والادلة التاريخية ...

الثمن ١٠ ل.ل.س.

توزيع

المكتب التجاري ـ بيروت

لجنة التاليف المدرسي تشكر جميع المعاهد العالية فى لبنان وسائر العالم العربي ، مغربه ومشرقه ، التي قررت تدريس كتابها :

التعريف في الادب العربي

تأليف الاستاذ رئيف خوري

وتعلن عن ظهور طبعته الجديدة ، المزيدة والمنقحة جزأين ، ويطلبان من جميع المكتبات

كتاب « التعريف في الادب العربي »

يحلل الاتجاهات الادبية طبقا لاحدث النظريات النقدية واصحها .

ويؤرخ لاعلام الشعراء والكتاب، ويدرس الفنون الادبية بفهم عميق ، وتحليل مقارن .

ومكان ؟ وهذه الحاجة الانسانية الاجتماعية لم تكن فى يوم أحوج الى عناية الادب بها كمثل هذا اليوم .

ازمة الادب العالمي فى ان الادب لا يحس اليوم برسالته، ولا يثق بقوته ، وهو الذي همه ان يبني الضمائر بنـــاء صحيحا ، وينبهها الى ان القيم الروحية الانسانية اذا زالت فمعنى زوالها زوال الانسانية جمعاء .

رسالة الادب اليوم ان يقيم النكير على ما رد العلم الذي فتح له العلماء باب قمقمه ، ليبسط سلطانه الاعمى عـلى الانسانية ...

رسالة الادب اليوم ان يقيم النكير على مارد العـلم الذي ـ كفى !

رسالة الادب ان يقول للعلم :

ـ ليست حقيقة هذا العالم فى اعداد هذه الاشياء المادية واخضاعها وانما حقيقته فى ان يتجه الى بناء الاشياء بحسب اتصالها وقدرتها على خدمة الانسانية. وما نفعنا من اخضاع الوجود بعد ان فقدنا جمال الوجود ؟ ومـا جدوانا مـن تفتيت الذرة بعد ان اصبحت الذرة تنذر الارض كلهـــا بالفناء ؟ والاشياء المادية بدون الروح ، سريعة الفناء ، سريعة الافناء ، وما كان الابداع الحقيقي الا سلاما وانسجاما ...

نحن لا ندعو الى ادب ميتافيزيكي سديمي ، او تصويري مجرد ، او فقاقيع تزيينية ، وانما ندعو الى ادب يخاطب الانسانية كلها ، لان آمالها اصبحت واحدة ، وآلامهـــا اصبحت مشتركة فى عالم لم يكن يوما فى حاجة الى مثل هذا الادب الانساني كاليوم لاستنقاذه .

واذا تاملنا فى ادب اليوم فهل نجده الا ادب الاستمتاع بالحياة لا حبا بالحياة ، وانما فرارا من القلق ، وخوفا من الهدم ، وليس هو ادب الاستمتاع بالحياة الهانئة الهادئة ، فأين ادب الانشاء والبناء ؟ ولكن.. لمن يبني الفكر الانساني وهو يرى آثاره ستحول عما قريب رمادا ؟

الازمة ، هنا ، فى صميم هذا الفكر الانساني الـــذي انسحب من المعركة ، ودعا شياطين المادة يعبثون كمـــا يشاءون . فهم يقدمون بيد ظواهر الترف المادي الـذي خلقته الآلة ، وباليد الاخرى يضعون ما يحطمهم ، ويحطم ظواهر ترفهم . فما اعظمنا اليوم امام الذرة ، ولكن مـــا أحقرنا أيضا !

سيظل الادب فى أزمة ما دام يهمل رسالة الانسانية ، ويكفر بتعاليمها السامية ، فاذا لم يؤد الادب العالمي رسالة انسانية صادقة ، ويوقظ ضمائر الناس على الحق والخير والحب فسيظل العالم فى أزمة ، ويظل الفكر العالمي معه فى أزمة لا يكون وقودها الناس والحجارة ، بل تكون ضحيته الاولى هذه الارض التي كتب تاريخها الانسان ، ثم يمحوه ـ ويا للاسف ! ـ هذا الانسان ...

خليل الهنداوي

بلا عنوان

ليلةٌ تمضي ، وماذا بعدها ؟ قل لي ..
جبانٌ أنتَ ، قل : « آخرُ ليلهْ »
لا تهدهد وجعي ، كفّاك من صخرٍ
وفي عينيك أعيادٌ ذليلهْ
... آه لا ! « الحبُّ يمحو البعدَ :
ضماتٌ على البعد ، رسالاتٌ طويلهْ
وهدايا من كنوز الشرق »
عنواني ؟ ترى أين أكونْ ... ؟؟
ربما عدتُ لباريسَ ، لأحيي
ذكريات الجوع فيها والجنونْ :
شارع ، ليل ، مصابيحٌ ، سكونْ
وسكارى يعبرونْ ..
أترى أين أكونْ ؟
ربما عدتُ الى الكهلِ الحزينْ
علّهُ يغفر لي بعدَ سنينْ
سوفَ يأتيني بطفلٍ أتبنّاهُ
وأحيا زوجةً ، أمّا نبيلهْ
تمسحُ الامسَ سوى ذكرى جميله
يا حبيبي لا تقُل : « آخر ليله »
ملءُ عينيكَ وكفيك رياحينٌ ولينْ
ويقينُ الامس هل يُنسى وآثارُ اليقينْ
لطخٌ زرقاء في جسمي المهينْ .

★

ليلةٌ تمضي ، وماذا بعدها ربي
سوى بردٍ ، وجوع ، وجنونْ ؟
إنها آخرُ ليله !
إبتعد ، كفّاك من صخرٍ
وفي عينيكَ اعيادٌ ذليله

كيمبردج انكلترا

خليل حاوي